الجزء الثاني: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة المعاصرة (الفترة الاستعمارية الفرنسية)

تعرضت الجزائر للاستعمار الفرنسي عام 1830م، و قد كان أبشع أنواع الاستعمار في التاريخ الحديث و المعاصر، لأنه لم يكن يهدف إلى غزو الأرض و ابتلاع خيراتها المادية و البشرية فحسب، و إنما كان يهدف أيضا إلى غزو الأفكار و القيم الحضارية للأمة الجزائرية من خلال نشر الثقافة الاستعمارية الغازية من لغة و دين و أفكار و قيم حضارية غربية.

و على هذا الأساس سنحاول في هذا الجزء الإحاطة بهذا الموضوع من خلال دراستنا للاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي، ثم نتعرض إلى التعليم و العلماء و ندرس فيه السياسة التعليمية التي انتهجها المستعمر الفرنسي في الجزائر، و كبار المعلمين و هجرتهم إلى الخارج و حركة التأليف التي رافقت حركة التعليم.

I – الاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي

لقد أدرك منظرو السياسة الكولونيالية الفرنسية منذ بداية الاحتلال أن مشروع الغزو الثقافي لن يتحقق إلا من خلال نشر الجهل و الأمية و إحلال اللغة و الثقافة الفرنسية محل اللغة و الثقافة العربية الإسلامية، و اتباع سياسة التنصير أي غزو الجزائر ثقافيا وفق رؤية و استراتيجية استعمارية خطط لها الفرنسيون في معرض تحضيرهم لعملية الغزو، فكيف تم ذلك؟ و ما هي معالم و مظاهر هذه الاستراتيجية؟

سنحاول تباعا ذكر بعض الأمثلة و الشواهد التاريخية عن هذا الغزو الثقافي من خلال محاولتنا التركيز على ثلاثة جوانب جوهرية تتمثل في:

-نشر الجهل و الأمية،

-الفرنسة،

-التنصير.

1 – نشر الجهل و الأمية

قدمنا فيما مضى أن التعليم كان منتشرا في الجزائر خلال العهد العثماني، و كانت له مؤسسات تسير شؤونه رغم عدم اهتمام السلطة العثمانية به، و أن السواد الأعظم من الجزائريين كان يتقن القراءة و الكتابة والحساب، و قد شهد الفرنسيون على ذلك عام 1830م.[1]

و اندهشوا حينما لاحظوا أن نسبة الأمية في الجزائر كانت شبه منعدمة عام 1830م في الوقت الذي كانت فيه مستفحلة في فرنسا إذ وصلت إلى 40%[2]، كما لاحظوا أيضا أن الجزائريين كانوا يوقعون بالكتابة لا بالأصبع [3]، و تكلموا كذلك على ظاهرة انتشار المدارس في كل أرجاء الوطن، و أكدوا أنه لا تكاد تخلو منطقة من مدرسة، و قد قدر معدل عددها بمدرستين لكل قرية.[4]

فقد وجد الفرنسيون في مدينة قسنطينة مثلا عام 1837م، و هي سنة استيلائهم عليها 35 مسجدا، و سبع مدارس يقصدها زهاء 700 تلميذ يتلقون فيها تعليما ثانويا، كما وجدت بها أيضا 90 مدرسة ابتدائية تتسع لنحو 1350 تلميذا.[5]

كما وجدوا في مدينة تلمسان 50 مدرسة، و كانت هناك 10 جامعات تقدم دروسا في التعليم العالي منتشرة عبر مختلف أرجاء الوطن يلتحق بها الطلبة بعد إنهائهم لمرحلتي التعليم الابتدائي و الثانوي. و كانت هذه المؤسسات التعليمية تعلم النشء مختلف أصناف العلوم و تغرس فيهم مبادئ الثقافة العربية و الإسلامية.[6]

---

[1] أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست: الجزائريين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984، ص 211.

[2] Jean Monlau : Les États Barbaresques, P.U.F, 1er Édition, Paris, France, 1964, p 106.

[3] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 156.

[4] Mostefa Lacheraf : op.cit, p 21.

[5] عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 217.

[6] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 176.

و لما لاحظت الإدارة الاستعمارية الفرنسية ذلك عملت على تحطيمها لأنها كانت تعلم جيدا أنها تشكل نواة معارضتها، و الصخرة الكؤود التي تتحطم عليها مشاريعها الاستعمارية الهادفة إلى تذويب الشخصية الوطنية و ابتلاع المقومات الحضارية للشعب الجزائري.[7]

و رغم أن الفرنسيين تعهدوا باحترام الشريعة الإسلامية و حرية السكان و ممتلكاتهم و عقيدتهم و خصوصياتهم الثقافية و الحضارية، إلا أنهم نكثوا عهودهم و أحلوا الفرنسية محل اللغة العربية، و قاموا بغلق المراكز و المدارس العربية، و شددوا الرقابة على المدارس الدينية [8]، و قاموا بمصادرة الأوقاف و نفي العلماء إلى الخارج، فتراجعت حركة التعليم، و نضبت موارده، و ضعفت نسبة التمدرس في الأوساط الأهلية بشكل لافت للانتباه. و هكذا تراجع عدد طلبة مدينة قسنطينة مثلا من 600 طالب عام 1837م إلى 60 طالبا عام 1847م، كما تراجع عدد المساجد من 86 مسجدا إلى 30 مسجدا.[9]

و تراجع عدد المدارس في مدينة عنابة إلى 12 مدرسة، كما تراجع مستوى المتعلمين، حيث صرح أحد مسؤولي هذا القطاع في مدينة سطيف عام 1857م بأن حالة التعليم في وضع مزر مؤكدا أنه من بين 400 طفل يوجد منهم 20 يحسنون القراءة أما التعليم في منطقة القبائل فكان شبه منعدم، و قد امتعض أحد المسؤولين الفرنسيين من هذه الوضعية بمدينة القالة و اضطر إلى إحضار التلاميذ بنفسه حتى لا يضطر إلى غلق المدرسة التي كان يشرف على تسييرها [10]

---

[7] Ahmed Mahsas : Le Mouvement Révolutionnaire en Algérie de la 1er Guerre Mondiale à 1954, librairie_Editions l'Harmattan, Paris, France, 1979, p 333.

[8] عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1991، ص ص 96، 97.

[9] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Premier, Éditions Bouchène, Paris, France 2000, p 318.

[10] Yvonne Turin : Affrontements Culturels dans l'Algérie Coloniale : Écoles, Médecines, Religion 1830-1880, E.NA.L, 2ème Édition, Alger, Algérie, 1983, p 229.

و كانت هذه السياسة تثلج صدور صناع القرار السياسي في الجزائر و لاسيما ضباط المكاتب العربية، و منهم النقيب (ريشارد) (Richard) الذي كان يردد العبارة الآتية "... عندما يتم القضاء النهائي على المدارس القرآنية، و تصير هباء منثورا، سيتحول هذا الشعب العربي إلى شعب أمي جاهل جهالة العصور البدائية، فعندئذ سيخلو لنا الجو و سيكون من الممكن تلقينه الأفكار و المبادئ الحضارية المفيدة التي تخدم قضيتنا..."[11]

و يلاحظ كذلك أن المستعمر الفرنسي قام بنهب و سلب التراث العربي الإسلامي الذي كانت تزخر به المكتبات الجزائرية كالمخطوطات و الكتب و الوثائق النادرة و نحو ذلك، و كان ضباط الجيش الفرنسي يرسلون ما يسطون عليه إلى أهلهم في فرنسا ليتصرفوا فيه بالبيع أو الإهداء.[12]

و وجد الفرنسيون عددا لا حصر له من المخطوطات الثمينة في مدينة قسنطينة عام 1837م تاريخ استيلائهم عليها، و لم يتمكن محافظ مكتبة الجزائر السيد (بربروجر) (**Berbrugger**) من جمعها بصورة كاملة، و استطاع أن يسلم إلى مكتبة الجزائر نحو 700 مخطوط فقط أنقذها من الضياع و الإتلاف.[13]

و أكد هذا الموظف الفرنسي ــالذي يبدو من خلال شهادته أنه كان يتميز بسمو الضمير لأنه كان لا ينظر بعين الرضا لما كان يقوم به جيش بلاده من استهتار بالمؤسسات الثقافية الجزائريةــ أن الجنود الفرنسيين كانوا يعتبرون كل ورقة يعثرون عليها مكتوبة باللغة العربية قرآنا**!** فيقومون بحرقها و إتلافها أو إرسالها إلى أهلهم بفرنسا في شكل هدية. و كل هذه الممارسات كانت تتم أمام عيون المسؤولين الفرنسيين الكبار، و على رأسهم قائدهم

---

[11] Charlse-Robert Ageron : op.cit, pp 318, 319.

[12] رابح تركي: التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975، ص 94.

[13] جيلالي صاري: المقال السابق، ص 156.

(دي بورمون) نفسه، الذي لم يشعر ألبتة بالحرج و هو يرى جنديه البسيط يشعل غليونه باستعمال الوثائق الثمينة المبعثرة.[14]

و بعد سنوات قليلة من إحكام الفرنسيين قبضتهم على الجزائر قاموا بتنصيب لجان رسمية لتدارس شؤون التعليم في الجزائر، و قد خلصت هذه اللجان إلى عدة نتائج أبرزها ضرورة مواصلة إهمال التعليم العربي الإسلامي، و التمسك بمبدأ عدم رد الأملاك العقارية الوقفية المسلوبة لأصحابها، و إنشاء تعليم خاص بالأهالي تدرس فيه العربية إلا أن الغلبة يجب أن تكون فيه للفرنسية و علومها. كما أوصت هذه اللجان بترك التعليم يمارس في الزوايا و المعمرات في المناطق الريفية و النائية، إلا أنها شددت على ضرورة مراقبته من حيث البرامج و المدرسون حتى لا تتحول هذه المراكز إلى بؤر معادية للفرنسيين.[15] لذلك وجه الفرنسيون اهتمامهم الكبير بهذه المؤسسات الدينية خاصة إعتبارا من عام 1849م. فبعدما كانت تقارير المكاتب العربية قبل هذا التاريخ لا تهتم بهذه المؤسسات و تصنفها في خانة الملاحظات العامة، إلا أنه سرعان ما وجهت لها اهتمامها مع نهاية هذه السنة، و منذ ذلك الوقت كانت كل مراسلات و تقارير هذه المكاتب لا تخلو من معلومات مستفيضة تخص الزوايا و الطرق الصوفية و المدرسين الذين كانوا يسمونهم الطلبة (بضم الطاء) الذين يقدمون دروسا فيها.[16]

و في هذا السياق أكد تقرير بقلم أحد الضباط الفرنسيين بعمالة قسنطينة عام 1852م أنه " ... يجب أن تبقى المساجد و الزوايا التي تقدم فيها الدروس من قبل الطلبة تحت المراقبة المستمرة الدقيقة للإدارة الفرنسية، لأن هذه المؤسسات الدينية هي مصدر كل الرزايا و البلايا والدسائس التي تحاك ضد المصالح الفرنسية من قبل المتعصبين في الجزائر،

---

[14] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 89.

[15] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 178.

[16] Yvonne Turin : op.cit, pp 200, 201.

حيث يرتل فيها القرآن، و تنبعث منها الأصوات الحاقدة علينا و الداعية إلى رمينا في البحر و إعلان الحرب المقدسة ضدنا..."[17]

و الواقع أن توجس الفرنسيين من هذه الزوايا كان كبيرا، لذلك كانوا يتتبعون أخبارها و يقتفون آثار رجالها عن طريق أعوانهم من الجزائريين داخل القطر الجزائري كله بل حتى خارجه، فقد ذكر تقرير لرئيس القطاع العسكري القسنطيني عام 1869م أن القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة المتعاونة مع الفرنسيين بالجنوب القسنطيني قام بزيارة إلى زاوية نفطة بالجنوب الغربي التونسي لجمع معلومات كافية حول أنشطة هذه الزاوية التي كانت متعاطفة مع الثوار الجزائريين بحكم انتمائها للطريقة الرحمانية المناهضة للوجود الاستعماري بالجزائر، و أنه استقبل استقبالا حسنا هناك من قبل مقدمي هذه الطريقة.[18]

و الحقيقة أن توجسات الفرنسيين من هذه الزوايا كان لها ما يبررها من الناحية العملية، فهذه الزوايا كانت هي المؤسسات الحقيقية للطرق الصوفية التي انتصبت كشوكة مغروسة في حلق الفرنسيين لأنها كانت تشكل الركيزة الأساسية لمعظم الثورات التي قامت ضد الفرنسيين، كما أنها كانت توفر الحماية والأمن للثوار، حتى لا تطالهم عيون الإدارة الاستعمارية الفرنسية.[19]

و بهذا يتراءى لنا أن الفرنسيين كانوا يفرضون رقابة على هذه المؤسسات الدينية، ليس فقط من أجل مراقبة البرامج التعليمية و رجالات التعليم، و إنما أيضا من أجل ضمان

---

[17]A.O.M : F80. 500, Affaires Arabes, Province de Constantine 1852, Cercle de Constantine pendant le Mois de Juillet 1852.

[18]I.S.H.C.T : A.O.M, Série 25H Tunisie, Carton 25H 18 (2), Dossier N° 2, Bobine A26 : Rapport du Général de Division de la Province de Constantine à son Exellence le Maréchal de France, Gouverneur Général de l'Algérie à Alger le 15 Novembre 1869 au Sujet des Marabouts de Nafta, Folios 37, 38, 39.

[19]Annie Rey-Goldzeiguer : le Royaume Arabe. La Politique Algérienne de Napoleon III 1861-1870, ENAG Éditions, Alger Algerie, 2010, p 291.

الأمن الاستعماري، مما يؤكد أن المشروع الاستعماري كان مشروعا كاملا و شاملا تقاطعت فيه العناصر الثقافية مع العناصر الأمنية الحيوية لفرنسا الكولونيالية.

إن المتأمل في هذه السياسة الاستعمارية التي ترجمتها التراتيب و الإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية في مجال محاربة التعليم و التضييق عليه، يدرك بداهة أنها قامت بإطفاء أنوار العلم و اغتالت الثقافة الجزائرية، و رمتها خارج حركة التاريخ. و رغم ذلك فهي تدعى أن غزوها للجزائر كان في إطار مهمتها التمدينية الحضارية.[20]

فقد ترتب عن ذلك استفحال ظاهرة الأمية، و تحولت الأغلبية الساحقة من الجزائريين إلى أميين، حيث ارتفعت نسبة الأمية بشكل مهول و وصلت إلى نحو **95%** خلال العقود الأخيرة من القرن 19 بعدما كانت لا تتجاوز **10%** في بداية الاحتلال.[21]

و أي كان الأمر فإن هذه الوضعية الكارثية التي آل إليه حال الجزائريين في مجال التعليم، كانت منتظرة، و لم يكن من الممكن تصور سواها، خاصة و أن الفرنسيين كانوا قد خططوا لها منذ أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر عام 1830م، و أنهم اعترفوا في محاضرهم و تقاريرهم بالرعونة و الوحشية التي ميزت سياستهم في هذا المجال منذ بداية الاحتلال. و قد شهد على هذه الفظاعة أحد منظري سياستهم، و هو القاضي (دي توكفيل) (**A.De Toqueville**) الذي كلف بتحرير محاضر المعاينة المتعلقة برصد اختلالات و جوانب القصور الخاصة بحالة التعليم في الجزائر خلال السنوات الأولى للاحتلال حيث كتب تقريرا إحتوى على عبارات قاسية قال فيه: " ... لقد أحكمنا قبضتنا على كل موارد المؤسسات الخيرية التي كانت تتكفل بحاجيات السكان في المجال الخيري لاسيما في مجال الصدقات و التعليم العمومي. لقد تركنا المدارس تتهاوى و تضمحل، و بعثرنا المحاضر و شتتناها بطريقة ممنهجة، و نتيجة لذلك انطفأت الأنوار من حولنا و عم الظلام الدامس... و هذا يعني أننا

---

[20]Ahmed Taleb Ibrahimi : Réflexions sur la Révolution Culturelle en Algérie : de la Décolonisation à la Révolution Culturelle, SNED, Alger, Algérie, 1973, pp 11, 12.

[21] أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر،المرجع السابق، ص 273.

جنينا على هذا المجتمع المسلم الذي تركناه في حالة من الجهل و الأمية و الوحشية تفوق بكثير الحالة التي كان عليها قبل أن يتعرف علينا..."[22]

هكذا نرى إذن أن سياسة التجهيل طبقت من قبل الفرنسيين بطريقة ممنهجة لأنهم كانوا يدركون جيدا أن تجهيل الشعب هو الشرط الأساسي لانجاح المشروع الكولونيالي برمته.

2 – الفرنسة

لا يختلف إثنان على أن اللغة هي أساس الشخصية الوطنية لكل أمة، لأنها تعتبر روح الأمة و عرقها النابض، و أن القضاء عليها يعني بالضرورة القضاء على ذاتية تلك الأمة.[23]

و على هذا الأساس اهتم الفرنسيون بهذا الجانب، و عملوا على فرنسة الجزائر من خلال إحلال اللغة الفرنسية و ثقافتها بالجزائر محل اللغة العربية و ثقافتها. و كان الفرنسيون يهدفون من وراء ذلك إلى القضاء بصورة تدريجية على لغة الجزائريين و ثقافتهم، لأنهم كانوا يعتقدون أنه مع مرور الزمن سينسى الجزائريون لغتهم و ثقافتهم و يستعيضون عنهما باللغة الفرنسية و ثقافتها تماما مثلما حصل في عدد كبير من البلدان التي تعرضت لغزو استعماري كان مصحوبا بعملية غزو ثقافي و فكري مركز و موجه بشكل منهجي، حيث نسيت شعوب هذه الدول لغتها و ثقافتها و عوضتهما بلغة وثقافة الدولة الاستعمارية الغالبة مثل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية و معظم شعوب أمريكا اللاتينية و بعض شعوب البلدان الإفريقية.[24]

و الواقع أن سياسة الفرنسة التي انتهجها المستعمر الفرنسي في الجزائر كانت قد مست مختلف المجالات و خاصة مجال التعليم في مختلف مراحله و برامجه من مناهج دراسية

---

[22] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 318.

[23] محمد طه بدوي: دراسات سياسية و قومية، منشأة دار المعارف، الاسكندرية، مصر، د.ت.، ص ص 86، 87.

[24] صالح بن نبيلي فركوس : المرجع السابق، ص ص 180، 181.

و نظم تعليمية و كتب مدرسية و لغة تدريس و إدارة تعليمية و توجيه و إشراف عام، إضافة إلى مجالات الحياة الاجتماعية و الثقافية و الإدارية الأخرى في البلاد، و كان هدف الفرنسيين من وراء ذلك هو محاولة إضفاء الطابع الفرنسي الخالص على كل ميادين الحياة العامة للجزائريين من أجل القضاء على الروابط التي تربطهم بثقافتهم و لغتهم القومية، و تاريخهم الإسلامي و انتمائهم الحضاري إلى الأمة العربية حتى تنشأ الأجيال الجزائرية وفقا لهذه الخطة الاستعمارية مبتورة من جذورها الأصلية، الأمر الذي يسهل على المستعمر الفرنسي السيطرة على الشعب الجزائري الذي يصبح أسهل انقيادا لفرنسا و أكثر قابلية لنتائج السياسة الفرنسية.[25]

و من أجل تطبيق هذه السياسة على أرض الواقع، اتبعت الإدارة الاستعمارية عدة إجراءات أبرزها:

-إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في مختلف مجالات حياة الجزائريين، حيث أصدر وزير الداخلية الفرنسي قرارا عام 1838م، اعتبر بمقتضاه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر!، و قد ترتب على ذلك بداهة تحجير تدريسها في مختلف المدارس الرسمية أو الشعبية إلا بصفتها لغة أجنبية.

-غلق كل المراكز الثقافية والمدارس الرسمية والمعاهد والزوايا التي كانت تدرس اللغة العربية عبر كل جهات التراب الوطني.[26]

-فرنسة الإدارة فرنسة كاملة تماشيا مع السياسة العامة لمشروع الفرنسة.

-محاربة حركة التعليم العربي الحر، و وضع شروط تعجيزية أثناء منح رخص التعليم للهيئات و رجال التعليم، الأمر الذي أدى إلى غلق عدد غير قليل من المدارس و النوادي والمساجد التي كانت تمارس هذا النوع من التعليم.

---

[25] رابح تركي: المرجع السابق، ص 105.

[26] عمار قليل: المرجع السابق، ص 97.

-تقسم اللغة العربية إلى ثلاث لغات: عربية فصحى، و عربية عامة، و عربية حديثة، ثم تقرر منع تدريسها نهائيا في المدارس الابتدائية، و جعلها لغة اختيارية في مرحلة التعليم الثانوي.

-إلغاء تدريس جغرافية الجزائر من البرامج الدراسية الرسمية الموجهة للطلبة و التلاميذ الجزائريين و الاستعاضة عنها بتدريس جغرافية فرنسا بهدف القضاء على الروح الوطنية في نفوسهم.[27]

- محاولة تشويه تاريخ الجزائر العربي الإسلامي بهدف زرع الشك حول انتمائها العربي الإسلامي، و في هذا الإطار كان التلميذ الجزائري يتلقى دروسا في مادة التاريخ تناقض الحقيقة التاريخية كأن يقال له بأن الجزائر كانت تسمى بلاد الغال و أن أجداده هم الغاليون، و كان يتلقى دروس التاريخ التي كان يتلقاها التلميذ الفرنسي في مقاطعة نورموندیا الفرنسية[28]، كما أن اهتمام المؤرخين و علماء الآثار الفرنسيين كان منحصرا في البحث عن تاريخ الجزائر تحت هيمنة الاحتلال الروماني و في عهد الاحتلال الفرنسي دون سواهما أي أنهم أهملوا عن قصد تاريخ الجزائر الطويل خلال الفترة الإسلامية، و كان غرض الفرنسيين من وراء ذلك هو محاولة إيهام الجزائريين و إقناعهم بأن بلادهم الجزائر هي بلاد فرنسية في حاضرها و مستقبلها و رومانية في ماضيها.[29] و كأنه قدر على هذا البلد وفقا لهذه النظرة ألا يكون له كيان مستقل بذاته نتيجة لعجز تاريخي حتمي (**InaptitudeCongénitale**)، حيث كان دوما جزءا من كيان آخر، ففي القديم كان جزءا من الإمبراطورية البونيقية، ثم جزءا من الإمبراطورية الرومانية، و في الفترة الحديثة كان ولاية عثمانية، و أخيرا ألحق بفرنسا الوريث الشرعي لروما في إطار الاحتلال

---

[27] رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 101-106.

[28] نقولا زيادة: صفحات مغربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1956، ص 311.

[29] رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 102-106.

الفرنسي[30]، و من المؤرخين الفرنسيين الذين يتبنون هذا الطرح الأستاذ "غوتييه" "**Gautier**".[31]

إن الجزائر وفقا لهذه الرؤية كانت منطقة فراغ حضاري، تنتفي فيها شروط الشعب المتماسك و الأمة المتكاملة، لأنها لم تكن سواء منطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكام و الملوك و الأمراء و تعيش على أرضها القبائل المتناحرة و المتنابزة التي لا تخضع إلا للقوة والترهيب[32]، ضف إلى ذلك أن الجزائر كان ينظر إليها وفقا لهذا المنظور على أنها جزء من الغرب المسيحي اغتصب من طرف الشرق الإسلامي في مناسبتين هامتين: الأولى عند الفتح الإسلامي في القرن 7م الميلادي، والثانية مع ظهور العثمانيين و تأسيس إيالة الجزائر في القرن 16م.[33]

هذه أهم الإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في سبيل فرنسة الجزائر في مختلف مجالات الحياة، وكان تركيزها على اللغة العربية لأنها هي وعاء الدين الإسلامي و الهوية الوطنية، و إحدى الدعائم الأساسية للشخصية الوطنية، لذلك فقد عملت على محاصرتها و إقصائها بصورة تدريجية من الحقل اللغوي.[34]

---

[30] مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830، الجزء الثاني، دار البعث للطباعة و النشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 1985، ص 285.

[31] عبر "غوتييه" عن وجهة النظر هذه بالعبارة الآتية:

- « On lui a souvent attribué cette incapacité du Maghreb à se constituer en état durable » E.F. Gautier : op,cit, p 10.

[32] أبو ا لقاسم سعد الله: " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 14، 15، عام 1973، ص 35.

[33] ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 35.

[34] Nadjia Benachour : «Dire Constantine ou la dernière, impression », in Expressions, Revue de l'Institut des Langues Etrangères, Université de Constantine, Spécial Colloque Malek Haddad, Janvier 1994, p 50.

و هذا ما يفسر أن معظم القوانين و التشريعات التي سنها المشرع الفرنسي من أجل تنظيم الشؤون العامة للجزائر في صدر الاحتلال كانت كلها تركز على المسألة اللغوية، من ذلك مثلا جاء في إحدى التعليمات مايلي: " إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة "مملكة فرنسية" إلا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية، والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي ــبالتدريجــ إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن"، كما ورد في تقرير رسمي عام 1849م مايلي: " لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة، و أن قضاءنا يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة التي يجب أن تصدر بها جميع البلاغات الرسمية، و بها يجب أن تكتب جميع العقود، و ليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا. إن أهم الأمور التي يجب علينا الاهتمام بها قبل كل شيء، هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة و عامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا، و تمثيلهم بنا، و إدماجهم فينا، و جعلهم فرنسيين".[35]

و يبدو أن هذه السياسة حققت جانبا من أهدافها، حيث أدت إلى تراجع مستوى اللغة العربية. و الدارس لكتابات محمد الصالح العنتري كتاريخ بايات قسنطينة مثلا يدرك بداهة الأسلوب الركيك الذي كتب به هذا الكتاب، و ذلك يمثل مظهرا من مظاهر الوهن الذي وصلته اللغة العربية في منتصف القرن 19م نتيجة للسياسة الفرنسية.[36] و رغم ذلك بقي الأهالي متمسكين بلغتهم لأنها تشكل رمزا لهويتهم و ملاذا لكل رافض لسياسة

---

[35] عبد الرحمان البزاز: هذه قوميتنا، دار القلم، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 1964، ص 118.

[36] ابو القاسم سعد الله: أفكار جامعة، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص 73.

الإدماج [37]، ضف إلى ذلك فقد رفضوا إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية باعتبارها " مدارس شيطانية" لأن ارتيادها كان في نظرهم يعني قبول ديانة الفرنسي" الكافر".[38]

و الواقع أن هذا الموقف تبنته كل شرائح المجتمع الجزائري بما في ذلك الأعيان و النخب و العائلات الكبرى التي نسجت علاقات متينة مع الإدارة الاستعمارية [39]، و كان الأهالي يفضلون إرسال أبنائهم إلى المدارس القرآنية و بعض المراكز التي يتعلمون فيها بعض الحرف لأن هذه الأماكن تسمح للأولياء بمراقبة أبنائهم و حمايتهم من كل تأثير عقائدي و أخلاقي[40]، لاسيما و أن الفرنسيين كانوا ينشطون من أجل نشر الأفكار المسيحية بين الأهالي الجزائريين و يعملون جاهدين على تنصيرهم.

3 – التنصير

يعتبر الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م تتويجا لصراع حضاري يعود بجذوره إلى عهد الصراع التقليدي القائم بين العرب و الروم و الإسلام و المسيحية، والشرق و الغرب[41]، ذلك أن الحملة التي شنها الفرنسيون على الجزائر عام 1830م، كانت قد بوركت من قبل الكنيسة و بابا الفاتيكان لأن الفرنسيين أكدوا لرجال الكنيسة أنهم سوف يشعلون أنوار الصليب بالجزائرو يطفؤون أنوار الهلال بها.[42]

---

[37] Abdallah Mazouni : Culture et Enseignement en Algérie et au Maghreb, Éditions Maspero, Paris, France, 1968, p 59.

[38] H.Benbarkat : « A propos de l'Algérie et ses Populations de J.P Durand et H. Tengour », in Cirta, Revue Historique et Sociologique, Publiée Périodiquement par l'Institut des Sciences Sociales de l'Université de Constantine, n° 8, 9, Année 1983, p 19.

[39] Ahmed Mahsas : op.cit, p 335.

[40] Omar Carlier et Autres : Lettrés, Intellectuels et Militants en Algérie 1880-1950, O.P.U, Alger, Algérie, 1988, p 147

[41] أبو القاسم سعد الله: خلاصة تاريخ الجزائر: المقاومة والتحرير 1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007، ص 15.

[42] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 16.

و إذا كان مبدأ الفصل بين الدين و الدولة من المبادئ المستقرة في الحياة السياسية الفرنسية منذ نجاح الثورة الفرنسية عام 1789م، فإن ما قامت به الكنيسة في المستعمرات و منها الجزائر يتناقض مع ذلك تماما.[43] و هو التناقض الذي لاحظه مستشرق فرنسي، و أحد كبار المبشرين و هو " أوجين بور" "**Eugène Bore**" الذي كتب كتابا من سوريا عام 1837م أشار فيه إلى التناقض الواضح بين سياسة الحكومة الفرنسية اللائكية في فرنسا و مساندتها الواضحة لحركات التبشير في المشرق الإسلامي.[44]

و الواقع أن الجزائر لم تتعرض عام 1830م إلى احتلال عسكري مدجج بمختلف أسلحة الفتك و الدمار المعروفة حينئذ فحسب، و إنما تعرضت بالموازاة مع ذلك إلى احتلال آخر لم يكن مدججا بالسلاح كالجيش الأول، و إنما كان يدعي نشر السلام و المحبة، و نعني به جيش المبشرين الذي عضد جيش الاحتلال و ساعده على تحقيق مقاصده الاستعمارية.[45] و الدليل على ذلك أن رجال الدين المسيحيين في أوروبا كانوا يتواصلون مع نظرائهم الذين أرسلوهم إلى الجزائر، و يؤكدون لهم على ضرورة خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي، فقد كتب البابا التاسع خطابا إلى (الكاردينال لافيجري)* بالجزائر قال له فيه: "

---

[43] اسماعيل العربي: الصحراء الكبرى و شواطئها، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص 109.

[44] الحبيب الجنحاني: " حركة التبشير و السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 16، عام 1979، ص 27.

[45] رابح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص 42.

* ولد شارل مارسيل لافيجري عام 1825 بفرنسا، تابع دراسات أكاديمية عليا في المسيحية، و تحصل على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت، شغل منصب أستاذ التاريخ الكنسي بكلية اللاهوت بجامعة السوربون (1854-1856) ثم باشر مهام أسقف Evêque مدينة نانسي الفرنسية عام 1863م، بعدها انتقل إلى الجزائر ليشغل منصب مطران Archevêque أي رئيس أساقفة بالجزائر العاصمة عام 1867م، و بهذا يكون قد عاصر سنوات القحط و المسغبة والجوائح و الكارثة الديمغرافية التي عصفت بالجزائر في تلك الفترة، و التي استغلها للتبشير للديانة المسيحية، وكان الساسة الفرنسيون معجبين به لأنه خدم المشروع الكولونيالي أيما خدمة، لذلك قلدوه وسام ضابط فرقة الشرف عام 1886م، قضى نحبه بالجزائر العاصمة عام 1892م.

حول هذه الشخصية الدينية ينظر:

- Annie Rey-Goldzeiguer : op.cit, p 771.

إن الأمر لا يتعلق فحسب بالديانة المسيحية، و لكن أيضا بالدولة الفرنسية التي يجب أن تخدموها أنتم و أتباعكم"[46]

فهدف الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يكن بسط الهيمنة الفرنسية على الجزائر، و جعل إقليمها فرنسيا فحسب، و إنما كان يهدف كذلك إلى غزو الأفكار و نشر الدين المسيحي، و إذا كانت مهمة غزو الأرض من اختصاص المؤسسة العسكرية، فإن مهمة غزو الفكر كانت من مشمولات الكنيسة [47]، و من هذه الزاوية، فقد تجند رجال الدين المسيحي لتحقيق هذا الغرض في الجزائر.

كانت سياسة التنصير تشكل حجر الزاوية في المشروع الاستعماري الفرنسي، و ليس أدل على ذلك من التصريحات التي كان قادة الاحتلال الفرنسي و رواده يصرحون بها، من ذلك مثلا التصريح الذي أدلى به أمين سر الحاكم العام للجزائر عام 1832م، حيث قال: " إن آخر أيام الإسلام قد دنت، و في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح **!** و نحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد"[48]، و قد صرح " الدوق دي روفيغو" " **Le Duc De Rovigo**"[49]في بداية الاحتلال: " يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه

---

[46] محمد الطاهر و علي: التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر، 1997ن ص 254.

[47] عبد القادر حلوش: "حركة التنصير في الجزائر عهد الاحتلال"، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، العدد 1، عام 1996، ص 118.

[48] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 181.

[49]كان " الدوق دي روفيغو" رابع حاكم عسكري فرنسي للجزائر (1831/12/06-1833/03/03)، و قد اقترن ذكر إسمه في كتب التاريخ بمجزرة العوفية قرب واديالحراش حينما أمر جنده بتصفية أفرادها في ليلة 6 إلى 7 أفريل 1832م عندما كانوا مستسلمين لنوم عميق، و تنفيذا لهذا الأمر قام الجنود الفرنسيين بتصفية أفراد هذه القبيلة الأبرياء عن بكرة أبيهم بطرق وحشية لا يقوى اللسان على وصفها، حيث قطعوا رؤوسهم و ثبتوا البعض منها على رؤوس أسلحتهم، وسلبوا كل ما ملكت أيادي أفرادها، وما تبقى من الأسلاب عرضوه في سوق باب عزون بالعاصمة، و قد صدم الناس و بقوا مشدوهين حينما رأوا أساور النساء و هي مشدودة إلى أيادي مقطوعة و مخضبة بالدماء و أقراطا ذهبية ملتصقة بآذان صاحباتها، والغريب أن القيادة الفرنسية استقبلت بارتياح كبير نبأ هذه الجريمة و أصدرت بيانا في 1832/04/08 باركت فيه هذا العمل الشنيع.

معبدا لإله المسيحيين" و صرح الجنرال (بيجو) "**Bugeaud**" الذي حارب الأمير عبد القادر: " إن الجزائريين لن يكونوا فرنسيين إلا إذا كانوا نصارى"[50]، و كان يجمع الأطفال اليتامى و يقدمهم إلى القس و يقول له: "حاول يا أبتي أن تجعلهم مسيحيين و إذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار".[51]

و قد وجد المبشرون في الكوارث الطبيعية و الظروف المأساوية التي مرت بها الجزائر خلال سنوات الستينات من القرن 19م ثغرات ينفذون منها لتحقيق أهدافهم في تنصير أبناء الجزائر، فنشطت الكنيسة و حاولت إحياء أمجاد و ذكريات القديس أوغسطين و مآثر الإمبراطورية الرومانية المحتضرة.[52]

و قد تزعم حركة التبشير الديني في الجزائر (الكاردينال لافيجري) الذي أنشأ هيئة دينية عرفت بـ (الآباء البيض).* و اتخذ من الجزائر العاصمة مقرا رسميا لها، و صرح قائلا: " علينا أن نجعل من الأراضي الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل... تلك هي رسالتنا الإلهية" و من أجل تحقيق هذا المشروع على أرض الواقع، زار لافيجري المناطق المنكوبة حاملا الصليب في يمينه و الخبز و الدواء في

حول ذلك ينظر:

- Anonyme : « Histoire de l'Algérie. Liste chronologique » : in R.A n° 31, Année 1887, p 428.

جيلالي صاري: " إبادة قبيلة العوفية بوادي الحراش"، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 77، عام 1983، ص ص 125-128.

[50] عمار قليل: المرجع السابق، ص 99.

[51] أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1957، ص ص 118، 119.

[52] الطاهر أو صديق: ثورة 1871، ترجمة جباح مسعود، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص ص 13، 14.

*أخذت هذا الإسم لأن كل أعضائها كانوا يرتدون ألبسة بيضاء تتمثل في برنوس أبيض و شاشية حمراء، و كانت هذه الجمعية من أهم البعثات المسيحية في الجزائر، أسسها الكاردينال لافيجري لمحاربة البعثات البروتستانتية التي حلت بالجزائر في ذلك الحين، و كانت مدعمة من قبل بريطانيا و دول أوروبا الشمالية.

حول هذه الجمعية ينظر:

- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 55.

شماله، و تمكن من جمع الأطفال اليتامى و تعهدهم بالتربية في رحاب الكنيسة، وفقا لتعاليم الديانة المسيحية.[53]

و لتبرير ما كان يقوم به هذا الكاردينال، فقد ساق حجة واهية مؤداها أن هؤلاء الأيتمام فقدوا ذويهم، و لم يجدوا من يرعاهم في تلك الظروف القاسية [54]، و عندما طالب أهالي هؤلاء الأطفال باسترجاع أبنائهم، رفضت الكنيسة طلبهم، و قال لافيجري: " إنهم لي، لأن حياتهم التي يعيشون بها أنا الذي حفظتها لهم".[55]

و قد نشط رجال الدين المسيحيين في إقامة المدارس و المستشفيات و مراكز التبشير فيها بقصد تنصير السكان و ذلك بإيعاز من رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية الذين بذلوا قصارى جهدهم لتنصير هذا الشعب و فرنسته و تجهيله، و قد لخص لنا المؤرخ و الجغرافي الفرنسي (غوتييه) (**Gautier**) غاية فرنسا في الجزائر حينما قال: " لقد أردنا أن نغير الجزائر من أرض شرقية إلى أرض غربية"[56]

إلا أن كل الإجراءات و الوسائل التي انتهجتها فرنسا لتحقيق هذا الغرض لم تنل من عزم الجزائريين الذين قاوموا هذه السياسة، و لم يتحولوا عن دينهم، و لم يفرطوا في لغتهم، حيث أخفقت سياسة التنصير و فشلت جهود المبشرين في هذا المجال، و هذا ما أكده (غوستوف لوبون) عالم الاجتماع الفرنسي الذي خبر و درس هذا الموضوع و توصل إلى نتيجة تؤكد ذلك حينما قال: " فأما ما يختص بالعرب، فقد استشهدت بقصة أربعة ألاف

---

[53] أحمد توفيق المدني: المرجعالسابق، ص 61.

[54] يحي بوعزيز: ثورة 1871 و دور عائلتي المقراني والحداد، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978، ص 93.

[55]Charles-André Julien : Histoire de l'Algérie Contemporaine. La Conquête et les Débuts de la Colonisation (1827-1871), Casbah Éditions, Alger, Algérie, 2005, p 441.

[56]Ferhat Abbas : Lanuit Coloniale, Guerre et Révolution d'Algérie, Éditions ANEP, Alger, Algérie, 2006, p 22.

يتيم الذين تولى أمرهم الكاردينال (لافيجري) فعلى رغم تربية هؤلاء تربية مسيحية بعيدة عن كل تأثير عربي رجع أكثرهم إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد".[57]

و بهذا يتأكد لنا أن سياسة المستعمر الفرنسي الرامية إلى غزو الجزائر ثقافيا لم يكتب لها النجاح رغم المشاريع و الامكانات المادية و البشرية التي خصصت لها، و ليس من غرضنا في هذا المقام الاسترسال في ضرب الأمثلة التي تؤكد موقف فرنسا الرامي إلى نشر الجهل و الأمية في الجزائر، و محاولة فرنسة هذا البلد، و محاولاتها العديدة تنصير الجزائريين بهدف القضاء على الشخصية الوطنية، لأن ذلك سيثقل كاهل هذه الدراسة لاسيما و أن هذا الموضوع يتطلب بحثا قائما بذاته، و إنما غرضنا هو الإشارة فقط إلى الخطوط العامة للسياسة الفرنسية في الجزائر الرامية إلى احتلال هذا البلد أرضا و شعبا و غزوه ثقافيا و تذويبه فكريا و حضاريا، ذلك أن هذا الغزو كان قد شمل الانسان و الأرض و الثقافة و الدين على حد سواء.

II – التعليم و العلماء

خصصنا هذا العنصر للحديث عن السياسة التعليمية الفرنسية و الجدل الذي أثارته مسألة تعليم الجزائريين إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية، و هو تعليم كان مقسما إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول و هو التعليم العربي الحر، و ينعت بالتعليم الوطني أحيانا، كما ينعت بالتعليم التقليدي أحيانا أخرى باعتباره استمرارا للتعليم الذي كان سائدا خلال العهد العثماني، و لم يمسه التطور و التحديث إلا مع ظهور الحركة الإصلاحية خلال النصف الأول من القرن العشرين. أما القسم الثاني فهو التعليم الحكومي الرسمي الذي كان متصفا بطابع التحدي الاستعماري الديني واللغوي والحضاري، و هو مقسم بدوره إلى تعليم خاص بالفرنسيين، و تعليم خاص بالجزائريين. و بالإضافة إلى ذلك سنتعرف أيضا إلى بعض

---

[57] غوستان لوبون: روح السياسة، ترجمة محمد عادل زعتر، المطبعة العصرية، جمهورية مصر العربية، د.ت، ص 169.

كبار المعلمين، كما سنتناول موضوع هجرتهم إلى خارج الجزائر و خاصة إلى بلاد المشرق و المغرب العربي، و أخيرا نختم الكلام بالحديث عن التعليم و حركة التأليف.